

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴾ ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ ﴿ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴾ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ﴿
 وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾ ﴿ إِنَّكُمْ لِنَبِيِّ قَوْلٍ مَّخْلُوفٍ ﴾ ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ ﴿ قُلِ الْحَرَامُونَ ﴾ ﴿
 الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرُقٍ سَاهُونَ ﴾ ﴿ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَلُونَ ﴾ ﴿ ذُوقُوا فَنتُكُمْ هَذَا الَّذِي
 كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴾ ﴿

ثبت من غير وجه، عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب: أنه سعد منير الكوفة فقال: لا نالوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنباتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴾ ؟ قال: الريح. قال: ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ ؟ قال: السحاب. قال: ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ ؟ قال: السفن. قال: ﴿ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴾ ؟ قال: الملائكة. وهكذا فرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقناة، والسدي، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحميلات وقرأ: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء. فأما الجاريات يسراً، فالشهور عن الجمهور - كما تقدم: أنها السفن، تجرى مسيرة في الماء جرياً سهلاً. وقال بعضهم: هي النجوم تجرى يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي: لخبر صدق ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ وهو: الحساب ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أي: لكانن لا محالة.

ثم قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾ قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم. وقال الضحاك، والمنهال بن عمرو، وغيرهما: مثل محمد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحيك. وعن أبي صالح: ﴿ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾: الشدة. وقال خفيف: ﴿ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾: ذات الصفاقة. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: ﴿ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾: حيكك بالنجوم. وقال عبدالله بن عمرو: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾ يعني: السماء السابعة. وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، فإنها من حسنها مرتفعة شفاقة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات. وقوله: ﴿ إِنَّكُمْ لِنَبِيِّ قَوْلٍ مَّخْلُوفٍ ﴾ أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرمل لفي قول مختلف

مضطرب ، لا يلتزم ولا يجتمع . وقال قتادة : إنكم لفي قول مختلف ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به . ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ﴾ أى : إنما يروج على من هو ضال فى نفسه ؛ لأنه قول باطل إنما يتقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمراً ، لا فهم له ، كما قال تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاهِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَنِيمِ﴾ [الصافات : ١٦١-١٦٣] . قال ابن عباس ، والسدى : ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ﴾ : يضل عنه من ضل . وقال مجاهد : ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ﴾ يؤفن عنه من أفن . وقال الحسن البصرى : يصرف عن هذا القرآن من كذب به .

وقوله : ﴿قِيلَ الْخُرَاصُونَ﴾ قال مجاهد : الكذابون . قال : وهى مثل التى فى عيسى : ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عيسى : ١٧] ، والخراصون الذين يقولون : لا نبعث ولا يوقنون . وقال ابن عباس : ﴿قِيلَ الْخُرَاصُونَ﴾ أى : لمن المرتابون . وهكذا كان معاذ يقول فى خطبه : هلك المرتابون . وقال قتادة : الخراصون أهل الغرة والظنون . وقوله : ﴿الَّذِينَ هُمْ لِي غُرَّةٌ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : فى الكفر والشك غافلون لاهون . ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ : وإنما يقولون هذا تكديبا وعنادا وشككا واستبعادا . قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُقْتُونَ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد : ﴿يُقْتُونَ﴾ : يعذبون ، كما يقطن الذهب على النار . وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا ، وعكرمة ، وإبراهيم النخعى : ﴿يُقْتُونَ﴾ : يحرقون . ﴿ذُوقُوا عَذَابَكُمْ﴾ قال مجاهد : حريقكم . وقال غيره : عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُسْتَعْجِلُونَ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا وتحقيرا وتصغيرا .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَّا أَسْمَارًا هُمْ يَسْتَفْرِقُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله ، عز وجل : إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون ، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال .

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى : فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ ، كقوله : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَمْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة : ٢٤] ثم إنه تعالى بين إحسانهم فى العمل فقال : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين :

أحدهما : أن «ما» نافية ، تقديره : كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه . قال ابن عباس : لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا . وقال مطرف بن عبد الله : قل ليلة تأتى عليهم لا يصلون فيها لله ، عز وجل ، إما من أولها وإما من أوسطها . وقال مجاهد : قل ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتجهدون . وكذا قال قتادة . وقال أنس بن مالك ، وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وقال أبو جعفر الباقى : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة .

والقول الثانى : أن «ما» مصدرية ، تقديره : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم . واختاره ابن

وقال الحسن البصرى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار سحر. وقال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصرى: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملى على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوقفاً بعيداً، إذا قوم لا تبلغ أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله ويرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوماً فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم. فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نرس، واتقى الله إذا استيقظ. وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكتبت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما، والناس نيام»^(٢). وقال معمر بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾: كان الزهري والحسن يقولان: كانوا كثيرا من الليل ما يصلون. وقال ابن عباس: ما ينامون.

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَفْتُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر»^(٣). وقال كثير من القسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبيته: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: آخرهم إلى وقت السحر.

وقوله تعالى: ﴿وَلِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة تثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَلِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أى: جزء مقسوم قد أفرزه ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أما السائل: فمعروف، وهو الذى يتدنى بالسؤال، وله حق.

وأما المحروم: فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم. يعنى: لا سهم له فى بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك. وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم.

(١) المسند (٤٥١/٥) والترمذى (٢٤٨٥) وقال: «حسن صحيح».

(٢) المسند (٦٦١٥) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

(٣) مسلم (١٦٩٩/٧٥٨).

وقال قتادة، والزهرى : «المَحْرُومُ»: الذى لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهرى: وقد قال رسول الله ﷺ : «ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرّة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يَفْطَنُ له فيتصدق عليه» (١). واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بأفة أو نحوها.

وقوله: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ» أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف السنة الناس والوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» قال قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ثم قال: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» يعنى: المطر، «وَمَا تَوْعَدُونَ» يعنى: الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقوله: «فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ»: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك ماهنا.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٠٠﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٠١﴾ فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿١٠٢﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١٠٣﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَنْخَفُ وَبَشِّرْهُمْ بِعِزَّتِنَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُكَرَّمُونَ ﴿١٠٤﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُمْ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

هذه القصة قد تقدمت فى سورة «هود» و«الحجر» (٢) أيضاً. وقوله: «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين» الذى الذين أُرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للتزليل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: «قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ»: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: «وَإِذَا حُيِّمْتُمْ بِنِجْمَةٍ فَهَيَّؤُوا بِأَحْسَنِّ مَا بَأْسُنَّ أَوْ رُدُّوهُا» [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ». وقوله: «فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ»: أى: انسل خفية فى سرعة «فجاء بعجل سمين» أى: من خيار ماله. وفى الآية الأخرى: «فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ» [هود: ٦٩] أى: بشوى على الرضف، «فقرَّبَهُ إِلَيْهِمْ» أى: أدناه منهم «قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ»: تلتطف فى

(١) البخارى (٤٥٣٩) ومسلم (١٠٣٩/١-١).

(٢) فى هود، الآيات (٦٩ - ٧٣)، والحجر، الآيات (٥١ - ٥٦).

العبرة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تفضل وتحسن وتصلق، فافعل.

وقوله: ﴿فَأَوْجِسْ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجِسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُوطٍ. وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُمْ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتبردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراءه إسحاق يعقوب ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَطْلَىٰ شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَنْصَبِي مِن أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَبِيبٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣] ولهذا قال هاهنا: ﴿وَبَشِّرُوهُم بِإِعْلَامٍ عَلَيْهِمْ﴾، فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ﴾ أي: في صرخة عظيمة ورنه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وهي قولها: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ ﴿فَصَكَتَ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت يديها على جبينها، قاله مجاهد. وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجبا كما تعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجور، وقد كنت في حال الصبا عقيما لا أحيل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي: عليهم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ ﴿سُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

قال الله مخبرا عن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الشَّرِئَةُ بِجَادِلِيهَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَن هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤-٧٦]. وقال هاهنا: ﴿قَالَ لَمَّا خَطِبْتُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم وفيهم جتتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ. سُومَةٌ﴾ أي: معلمة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مكتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَجِئْتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امراته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. احتج بهذه من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا يتعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب

والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلثهم بحيرة متنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَخْلَفُونَ أَغْطَابَ الْأَيْمِ ﴾.

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكُوعًا وَقَالَ سَحَرُ أَوْ أَحْمُوتٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَيَدَتْهُمْ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْسِ ﴿٤٢﴾ وَفِي نُوحٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَمَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَارٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّتِهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطانٍ مبين ﴾ أى : بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فتولى رُكُوعًا ﴾ أى : فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكبارا وعنادا. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿ فتولى رُكُوعًا ﴾ أى : بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ [هود: ٨٠]. والمعنى الاول قوى كقوله: ﴿ فإني عطفيه ليليل عن سبيل الله ﴾ [الحج: ١٩] أى : معرض عن الحق مستكبر ﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ أى : لا يخلو أمرك فيما جنتى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا، قال الله تعالى: ﴿ فأخذناه وجنوده فلبثناهم ﴾ أى : القيناهم فى اليم، وهو البحر ﴿ وهو ملوم ﴾ أى : وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال عز وجل : ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ أى : المفسدة التي لا تتج شيئا. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما. ولهذا قال: ﴿ مما تذر من شيء أنت عليه ﴾ أى : بما تفسده الريح ﴿ إلا جعلناه كالرَّيْسِ ﴾ أى : كالشيء الهالك البالى. قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله: ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ قالوا: هى الجنوب. وقد ثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » (١). ﴿ وفي نوح إذ قيل لهم تمسوا حتى حين ﴾ قال ابن جرير: يعنى إلى وقت فناء أجالكم. والظاهر أن هذه كقوله: ﴿ وأما نوح فهديتاهم لاستحبوا العمن على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ [فصلت: ١٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿ وفي نوح إذ قيل لهم تمسوا حتى حين. فمتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم فى صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أى : من هرب ولا نهوض ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أى : ولا يقدرن على أن يتصروا مما هم فيه.

وقوله عز وجل: ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة فى أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا بِأَيْدِي وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٣٨﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٠﴾ فَعَبَّرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤١﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

(١) مسلم (١٧/٩٠٠).

يقول تعالى منها على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَالْبَسَاءَ بِنَهَايَ﴾ أى: جعلناها سقفا محفوظا رفيعا ﴿بَاهِدًا﴾ أى: بقوة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد ﴿وَأَنَا لَمُوسِيُونَ﴾ أى: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى: جعلناها فراشا للمخلوقات ﴿فَبِعَمِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: وجعلناها مهدا لأهلها ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال: ﴿لَتَعْلَمَنَّ اللَّهُ أَنَّهَا لَمُوسِيُونَ﴾ أى: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿فَهَيِّؤُوا لِنَا آلِهَةً قَدِيبًا﴾ أى: الجؤوا إليه، واعتمدوا فى أموركم عليه ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنَ الْمُخَلَّقِينَ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى: لا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنَ نَذِيرٍ مُبِينٍ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ ۖ فَأَتَوْنَا يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ طَاعُونَ ۗ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ فَلَمَّا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۖ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۗ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ۗ إِنْ أَلْفَوْهُ الذُّلُوفَ فَالْتَمِئْ ۗ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنْبًا مِثْلَ ذَنْبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِينُونَ ۗ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۗ﴾

يقول تعالى مسلينا لئيبه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الاولون لرسولهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ﴾! قال الله عز وجل: ﴿أَتَوْنَا يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ طَاعُونَ﴾ أى: اوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة ؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَافُونَ﴾ أى: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخروهم كما قال مقدمهم. قال الله تعالى: ﴿تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أى: فأعرض عنهم يا محمد ﴿فَمَا أَنْتَ بِمُطْمَئِنِّنٌ﴾ أى: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إنما يتفجع بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي، لا لاحتياجى إليهم. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها، وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جرير: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا للعبادة. وقال السدى: من العبادة ما يتفجع ومنها ما لا يتفجع، ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس يتفجع مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون. وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ﴾. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: أقرانى رسول الله ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَنَا الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾. ورواه أبو داود، والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبده وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك».

ورواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى : حسن غريب (١). وقد روى الإمام أحمد عن حبة وسواه ابني خالد يقولان : أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبنى بناء - وقال أبو معاوية : يصلح شيئا - فأعناه عليه ، فلما فرغ دعا لنا وقال : « لا تياسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يعطيه الله ويرزقه » (٢)

وقوله : «فإن للذين ظلموا ذنوبا» أى : نصيبا من العذاب «مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون» أى : فلا يستعجلون ذلك ، فإنه واقع لا محالة «فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون» يعنى : يوم القيامة .

(١)المستد (٣٥٨/٢) والترمذى (٢٤٦٦) وابن ماجه (٤١٠٧) وصححه الألبانى .

(٢)المستد (٤٦٩/٣) .